نزهة الأسرار في محاورة الليل والنهار

م. د. كاظم صافي حسين
المديرية العامة لتربية بابل
Abo.tmam42@yahoo.com

الملخص

لقد اعتمد المحقق على نسخة مصورة من المخطوطة مودعة في مكتبة أمير المؤمنين (عليه السلام) في النجف الأشرف، تحمل عنوان (نزهة الأسرار في محاورة الليل والنهار) للشيخ علوان بن عطية الحموي (ت ٩٣٦ هـ)، وقد نسخها الشيخ محمود بن عبد القادر الشافعي سنة ١٠١٢هـ، ونسخة المخطوط بحالة جيدة وبخط واضح، أما موضوعها فهو في البلاغة العربية، وقد انطوت على محاورة لغوية بأسلوب بلاغي جميل بين الليل والنهار .

الكلمات المفتاحية: تحقيق ـ نص نثري شعري ـ القرن العاشر.

Abstract

The investigator depends on a photocopied manuscript kept in Ameer Al – Mu'mineen , (peace be upon him), library in the Holy Najaf city, entitled: (Nazht al – Asrar fi Muhawarat Al- leil we Al- Nahar), by: Sheihk Alwan ibin Attiya Al- Hammawi (deid in 936 H) .

It was photocopied by Shiekh Mamood Ibin Adbdulkadir Al – Shafi'l in 1012 H. The copy of the manuscript in good condition clearly written . It deals with Arabic rhetoric including a linguistic dialogue between the day and the night . It was written in a rhetorical style .

Keywords: hnvestigation, proseand poetry text, the tenth century.

أولاً : سيرة الشيخ علوان الحموي [١] :

اسمه ومولده :

هو علاء الدين أو علي بن عطية بن الحسن بن الحداد الحموي الشافعي الصوفي، وعلى الأشهر الشيخ (علوان الحموي)، ولد سنة ٨٧٣هـ في مدينة هيت إحدى مدن الأنبار، إلا أنه نشأ وتربى في حماه، وهي إحدى المدن السورية وفيها توفي أيضا .

شيوخه :

لقد تلمذ الشيخ علوان على يد مجموعة من الشيوخ ذكرت كتب التراجم بعضهم ومنهم :

١- ابن السلامي الحلبي ت ٨٧٩هـ .
٢- القطب الخضيري ت ٨٩٤ هـ .
٣- البرهان الناجي ت ٩٠٠هـ .
٤- الفخر عثمان الدمشقي ت ٩٠٨هـ .
٥- السيد الشريف أبو الحسن علي بن ميمون المقري ت ٩١٧ هـ ، أخذ عنه التصوف .
٦- الشمس محمد بن داوود البازلي ت ٩٢٩ هـ .
٧- الشيخ زين الدين بن الشماع ت ٩٣٦ هـ .

تلامذته :

لقد أوردت كتب التراجم للشيخ علوان جملة من التلاميذ، غير أنها لم تورد سنوات وفياتهم، والراجح أنهم من أعلام منتصف القرن العاشر الهجري ونهاياته ونذكر منهم :

١- أبو الحسن علي بن أحمد الكيزواني .

٢- زين الدين عبد الرحمن بن محمد البتروني

٣- الشيخ زين الدين علي بن عمر العقيبي.

٤- موسى بن الحسن الملقب بعوض المسافر .

وهناك طائفة أخرى من تلامذته لا يتسع المجال لذكرهم .

مؤلفاته :

ترك الشيخ علوان مجموعة كبيرة من المؤلفات المخطوطة توزعت بين الفقه والأصول والتصوف والبلاغة والشعر، أهمها :

١- أبيات الجمع .

٢- شرح تائية ابن الفارض (كشف الغامض والمجدد الفائض على تائية ابن الفارض) .

٣- شرح تائية الشيخ عبد القادر بن حبيب الصفدي .

٤- رسالة (فتح اللطيف بأسرار التصريف) .

٥- كشف الزين ونزح الشين ونور العين في شرح سلك العين لإذهاب الغين .

٦- مجلي الحزن عن المحزون في مناقب الشيخ علي بن ميمون .

٧- المنظومة الميمية المسماة (الجوهر المحبوك بالحلي المسبوك في طريقة السلوك) .

٨- النفحات القدسية في شرح الأبيات الششترية .

وله مؤلفات أخرى ذكرتها الكتب التي ترجمت له تزيد على عشرين مؤلفا، وأكثرها ما زال مخطوطا في المكتبات العربية .

وفاته :

ذكرت كتب التراجم أن وفاة الشيخ علوان بن عطية كانت سنة ٩٣٦ هـ، في دمشق في عصر السلطان سليمان القانوني، عن عمر يناهز الثمانين عاما .

وقد انفرد صاحب كشف الظنون بالقول: إن سنة وفاته كانت ٩٢٢هـ، وهذا أمر غير مرجَّح عندي، وذلك لتأخر صاحب كشف الظنون (حاجي خليفة) عن بقية الذين ترجموا للشيخ علوان، وعادة يكون الأقرب من عصر المؤلف هو الأدق، وكذلك لتفرده في ذكر هذه السنة، ويسند ذلك أن الشيخ علوان قد ذكر في مقدمة هذه المخطوطة أنه كتبها سنة ٩٢٧ هـ .

أما قبره فما زال قائما في حماه في زاوية تسمى زاوية الشيخ علوان، والزاوية هي ما يتخذ مقراً للعبادة والأذكار والاجتماع لأتباع المنهج الصوفي .

النسخة المعتمدة :

اعتمد التحقيق على نسخة مصورة محفوظة في مكتبة أمير المؤمنين (عليه السلام) في النجف الأشرف، وهي مخطوطة كاملة تحمل رقم التسلسل ٣٠٨٠، وتسلسلها المخزني ٤ / ١ / ٤٠٤ ملحق ٢، كتبها الناسخ محمود بن عبد القادر الشافعي سنة ١٠١٢هـ في حلب، وبخط (النسخ) وحالة الخط جيدة، اتحتو على ثلاث عشرة صحيفة (قياس ١٩،٥ × ١٣،٥)، في كل صحيفة واحد وعشرون سطرا، ويشتمل السطر الواحد على عشر كلمات، حالة الورق جيدة، ولونه أبيض أما الغلاف فهو جلد كارتوني .

أما جنسها فهو نثر فني بأسلوب بلاغي عالٍ، كتبها الشيخ علوان على شكل محاورة لغوية بين الليل والنهار، يفتخر كلٌّ منهما على الآخر، إذ يذكر محاسنه ويقابلها بمساوئ، استطاع أن يوظف فيها الشيخ علوان ثقافته الواسعة، وموهبته الشعرية، إذ تخللها بعض الأبيات الشعرية كتبها هو في معرض التفاخر بين الليل والنهار .

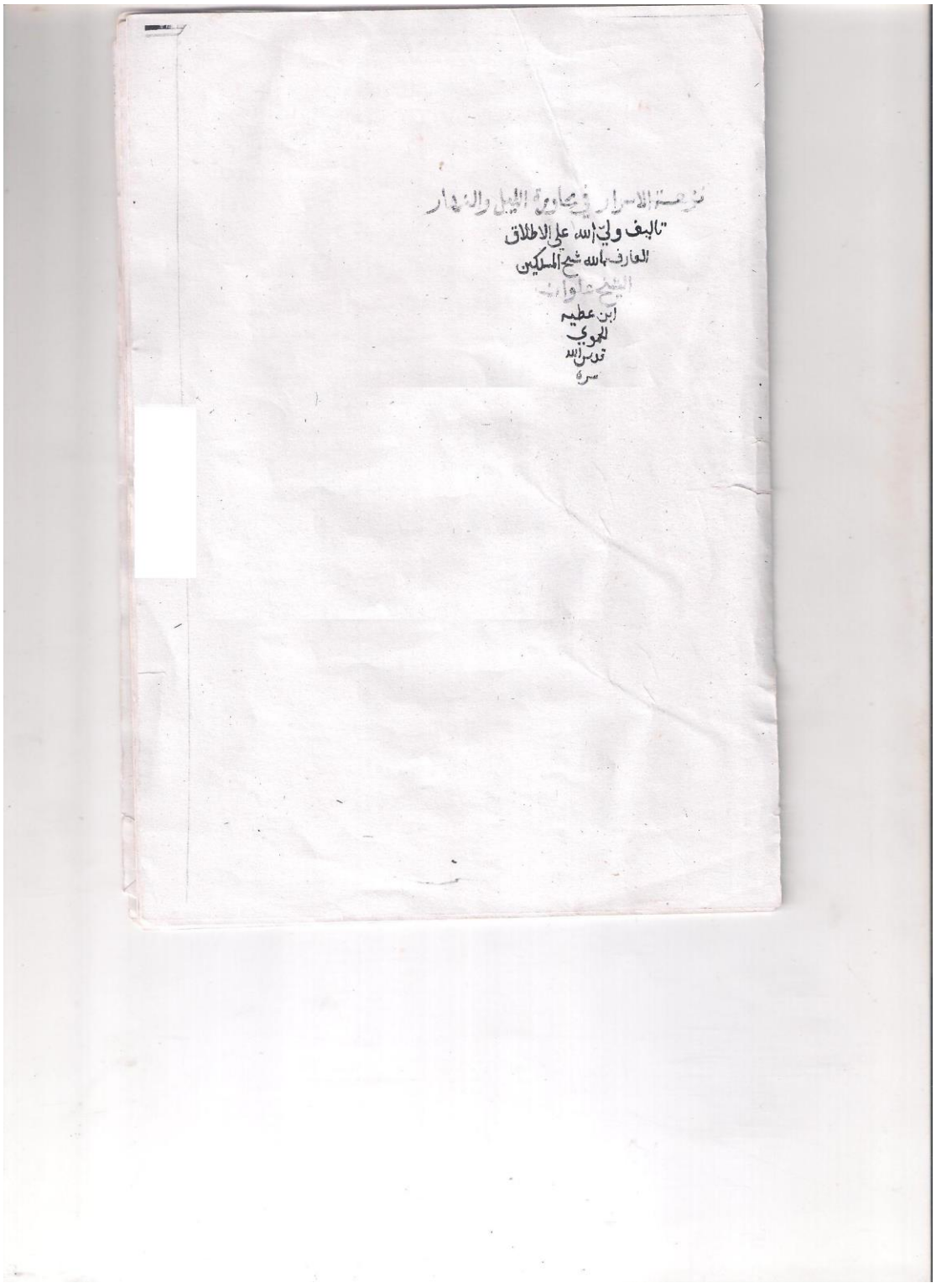

صفحة العنوان

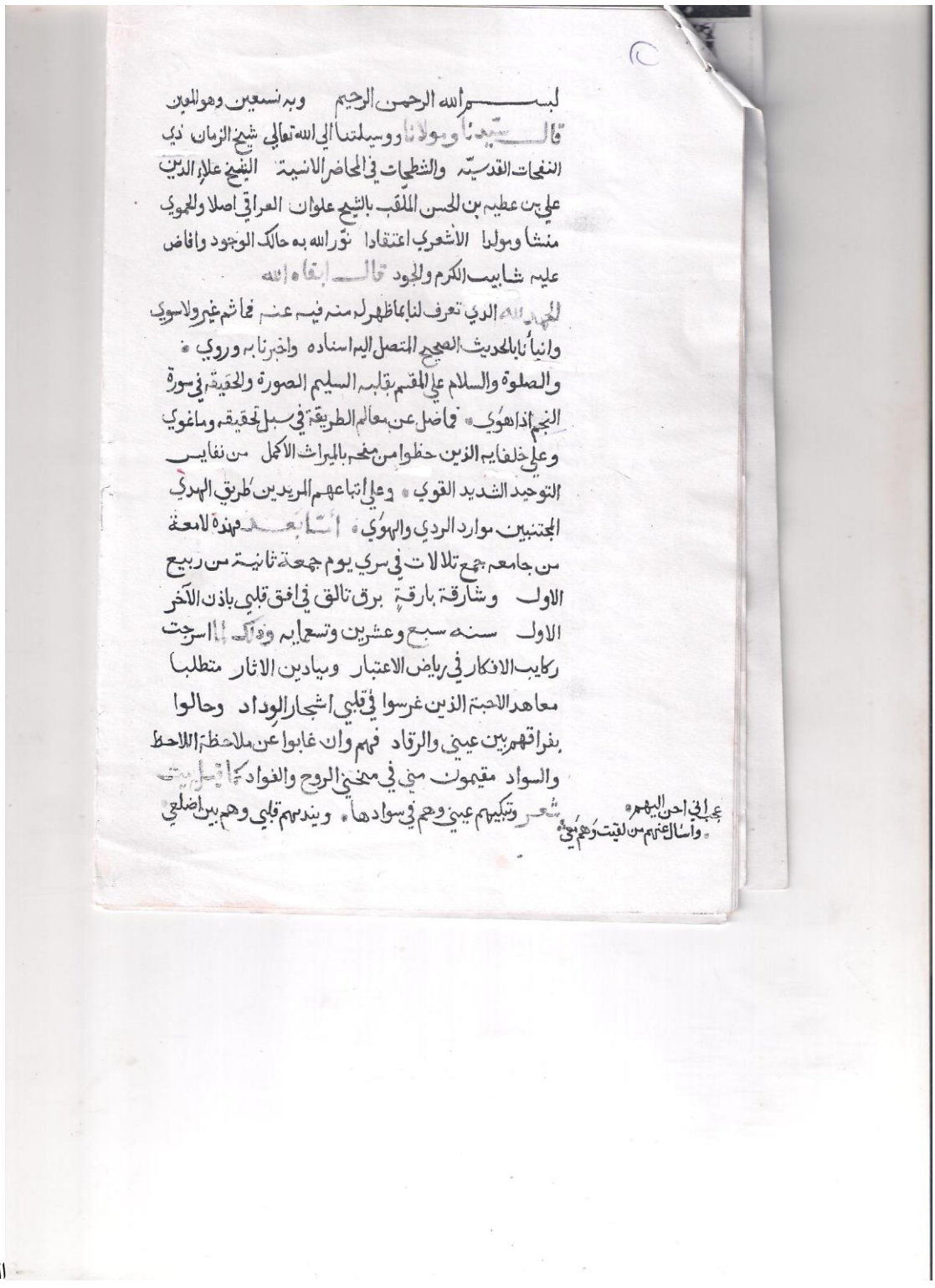

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين وهو المون
قال سيدنا ومولانا ووسيلتنا الى الله تعالى شيخ الزمان ذي
النفحات القدسية والشطحات في المحاضر الانسية الشيخ علاء الدين
علي بن عطيه بن الحسن الملقب بالشيخ علوان العراقي اصلا والحمويك
منشا ومولدا الاشعري اعتقادا نور الله به حالك الوجود وافاض
عليه شابيب الكرم والجود قال ابقاه الله
الحمد لله الذي تعرف لنا بما ظهر له منه فيه عنه فما ثم غير ولا سوى
وانبأنا بالحديث الصحيح المتصل اليه اسناده واخبرنا به وروى
والصلوة والسلام على المقسم بقلبه السليم الصورة والحقيقة في سورة
النجم اذا هوى فاضل عن معالم الطريقة في سبل تحقيقه وما غوى
وعلى خلفايه الذين حظوا من مخم بالميراث الاكمل من نفايس
التوحيد الشديد القوي وعلى اتباعهم المريدين طريق الهدى
المجتنبين موارد الردي والهوى اما بعد فهذه لامعة
من جامعه جمع تلالات في سري يوم جمعة ثانية من ربيع
الاول وشارقة بارقة برق تالق في افق قلبي باذن الاخر
الاول سنه سبع وعشرين وتسعمايه وذلك اذ اسرجت
ركايب الافكار في رياض الاعتبار وبيادين الاثار متطلبا
معاهد الاحبة الذين غرسوا في قلبي اشجار الوداد وحالوا
بفراقهم بين عيني والرقاد فهم وان غابوا عن ملاحظة اللاحظ
والسواد مقيمون مني في مخني الروح والفواد كما ابيات
شعر وتبكيهم عيني وهم في سوادها ويندبهم قلبي وهم بين اضلعي
عجبت اني احن اليهم واسال عنهم من لقيت وهم مني

صفحة الأولى من المخطوطة

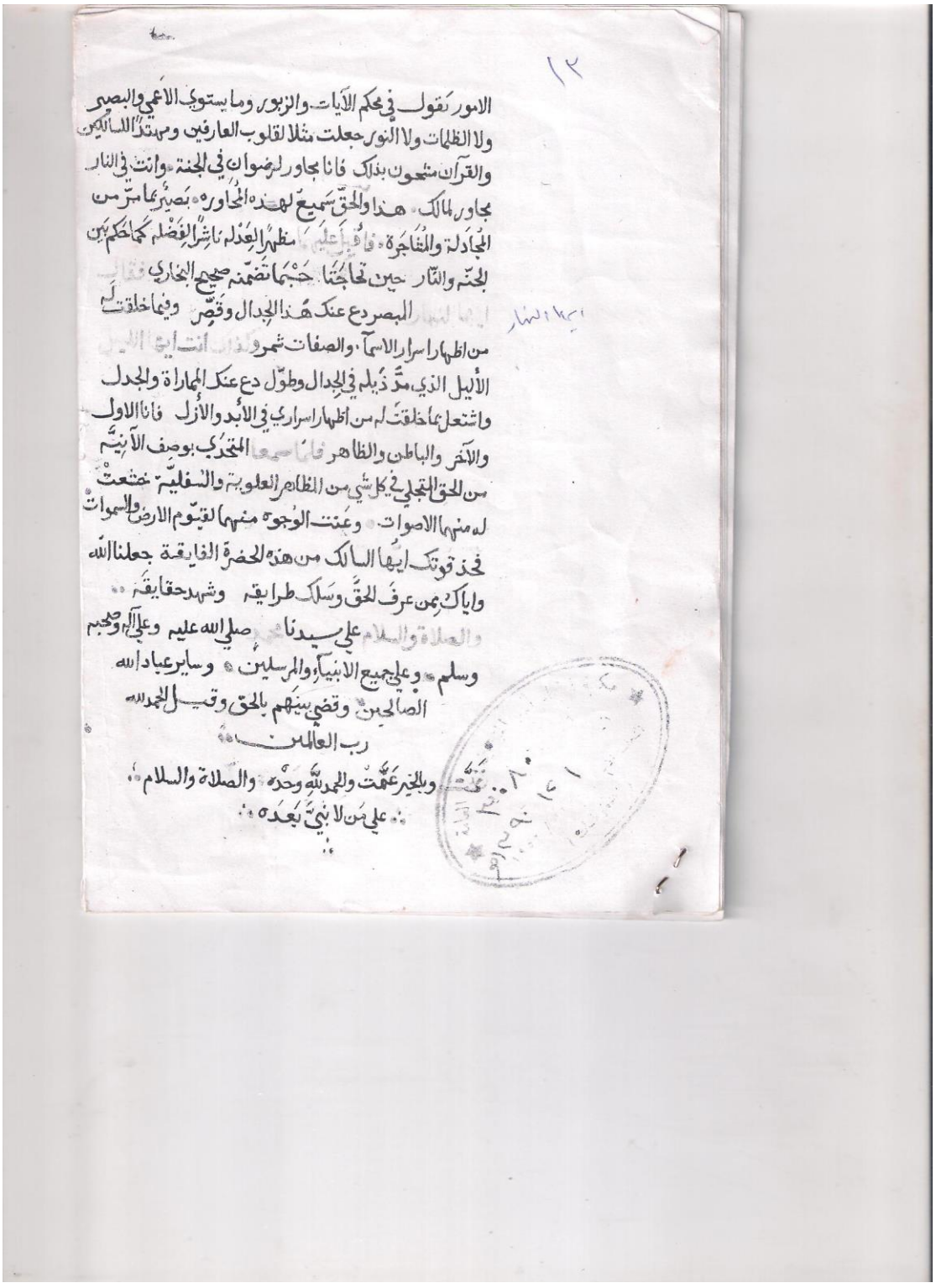

الامور نقول في محكم الآيات والزبور وما يستوي الاعمى والبصير
ولا الظلمات ولا النور جعلت مثلا لقلوب العارفين ومهتدي السالكين
والقرآن مشحون بذلك فانا مجاور لرضوان في الجنة وانت في النار
مجاور لمالك هذا والحق سميع لهذه المحاورة بصير بما مر من
المجادلة والمفاجرة وقد قيل عليك مظهر العدل ناشر الفضل كما حكم بين
الجنة والنار حين تحاجتا حبهما تضمنه صحيح البخاري فقال
المبصر دع عنك هذا الجدال وقصر فيما خلقت له
من اظهار اسرار الاسماء والصفات شمر وذر انت ايها
الأليل الذي مد ذيله في الجدال وطول دع عنك المماراة والجدل
واشتغل بما خلقت له من اظهار اسرارك في الأبد والأزل فانا الاول
والآخر والباطن والظاهر فانا سر المتحرك بوصف الآنية
من الحق المتجلي في كل شيء من المظاهر العلوية والسفلية خضعت
له منهما الاصوات وعنت الوجوه منهما لقيوم الارض والسموات
فخذ توبتك ايها السالك من هذه الحضرة الفايقة جعلنا الله
واياك ممن عرف الحق وسلك طريقه وشهد حقايقه
والصلاة والسلام على سيدنا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
وسلم وعلى جميع الانبياء والمرسلين وسايرعباد الله
الصالحين وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله
رب العالمين
وبالخير عمت والحمد لله وحده والصلاة والسلام
على من لا نبي بعده

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

ثانياً : النص المحقَّق

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين وهو المعين :

قال سيدنا ومولانا ووسيلتنا إلى الله تعالى شيخ الزمان (ذي) [٢] النفحات القدسية والشطحات في المحاضر الإنسية الشيخ علاء الدين علي بن عطية بن الحسين الملقب بالشيخ علوان العراقي أصلا، والحموي[٣] منشأً ومولداً، والأشعري [٤] اعتقاداً ، نوَّر الله به حالك الوجود، وأفاض عليه شآبيب [٥] الكرم والجود.

قال أبقاه الله :

الحمد لله الذي تعرف لنا بما ظهر له منه فيه عنه فما ثم غير ولا سوى [٦] ، وأنبأنا بالحديث الصحيح المتصل إليه إسناده، وأخبرنا به وروى، والصلاة والسلام على المقسم بقلبه السليم الصورة والحقيقة في سورة النجم : ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [٧] ، فما ضل عن معالم الطريقة في سبيل تحقيقه، وما غوى على خلفائه الذين خطوا من منحه بالميراث الأكمل من نفائس التوحيد الشديد القوي . وعلى أتباعه المريدين طريق الهدى ، المجتنبين موارد الردى والهوى .

أما بعدُ : فهذه لامعة من جامعة، جمعٌ تلألأت في سري يوم جمعة ثانية من ربيع الأول، وشارقة بارقة [٨]، برق تألق في أفق قلبي بإذن الآخر الأول سنة سبع وعشرين وتسعمائة، وذلك لما أسرجت ركائب الأفكار في رياض الاعتبار، وميادين الآثار، متطلبا معاهد الأحبة الذين غرسوا في قلبي أشجار الوداد، وحالوا بفراقهم بين عيني والرقاد، فهم وإن غابوا عن ملاحظة اللاحظ والسواد، مقيمون مني في منحنى الروح والفؤاد، كما قيل[٩] :

ومن عجب أني أحن إليهمُ وأسأل عنهم من لقيتُ وهم معي

وتبكيهمُ عيني وهم في سوادها ويندبهم قلبي وهم بين أضلعي

وكان مفتاح مغلق بيت هذا البسط الشارح أبيات [١٠] سنحت في فكري بإذن الكريم الفتاح، (بيت) [١١] منها على ما سيُذكر وليس الخبر عند نشق العبير الفائق على المسك والعنبر، وذلك بعد قبض امتدت لياليه، وطالت ومدت مخالبها عواديه، واستطالت حتى كادت النفس أن تسلك سبيل اليأس، [وإنه لمن المرسلين] [١٢] بإذن خالق الأنفاس، فمن اللطيف المقدر بروضة أنس حلَّ بها ولي الله الخضر .

فهنالك صدحت حمامة الحمى ببراعة الاستهلال، بحمد الله الجليل الجميل الكبير المتعال، فغردت في دوحة البطون والغيب، بعد أن كان من الأهوال الوليد ينزل به ضيوف الشيب، من فتن تراكمت تراكم السحاب، ونزل بالبلاد الشامية بسبب جان برد الغزالي [١٣]، وعسكر السلطان العثماني[١٤] – نصره الله – ما لم يخطر ببال ولم يكن في حساب، فقلت وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق، لما بزغت شمس البسط من آفاقها وتلألأت في مطالع السر سني إشراقها .

شعر [١٥] :

أحمد الله على ما منحا باب وصلي سيدي قد فتحا

وسقاني من ودادٍ شربة أذهبت حزني وصدري شرحا

يا أخلائي هلموا فانظروا مجلسا فاق فأبدى الفرحا

ذات مولانا تجلت جهرة بصفات قد أنالت منحا

وحبانا منه لطفا ووفا ولنا عما مضى قد سمحا

وعفـــى عنا بجود رحمة وعن التقصيـر منـا صفحا
يا له مولـــى كريمـا ماجـدا فوز من وحـــده أو سبحا
قـمْ إليـــه واغتنـــم حلوتـــه لترى جلوته وقت الضحى
آهٍ من عمـــر تقضى غفلـــةً سوقه يا صاحبي ما برحا
كم إلى كم ؟ من صدود وجفا فوز من تاب وقلبا أصلحا
هـــا فـؤادي بابـــه ملتـزمٌ أبـداً عـن حبـــه ما برحا
لو رأيتـم حالتـــي يا أخوتي كان كلٌّ منكـم قد شطحا
قدح الوجد بقلبي أهيف فاتر اللحظ رشيق قدحا
وسقاني من شراب قد صفا فدناك قد دنت لي قدحا
يا له من ماجد قد زانه احتجاب العز يا [يا] أملحا
سعد من أضحى خديما بابه قدره عند الورى قد رجحا

فلما أنشدت مبادئ هذه الأبيات، انبعثت انبعاث الأحياء بين الأموات. فسرحت طرف البصيرة في أرجاء الكائنات، متطلعا إلى ما أبرزتْه من الأسماء والصفات، من الحروف والكلمات، والسطور المرسومة على صفحات الموجودات، المشتملة على الأبيات البينات، والأحكام الواضحات، والسور المفضلات، والكتب المحكمات المجملات . فتلقاني بالتسيار ببياض ضياء النهار، فصافحني بكفٍّ مستمدٍ من نور الشمس، وحياني بساعد توحيد لا شك فيه ولا لبس فيه، ودعاني إلى حضرته. وندبني إلى اكتراع قهوته، والدخول في أرباب زمرته. وندبني إلى امتطاء ظهر إلى حضرة الحبايب، وقال : اعرف المطلوب مني والطالب، فألهمت بأن كنت مقتديا بخير القائلين : ﴿ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴾ [١٦]. فهنالك أقبلت على من لذت بجنابه. وطلبت المزيد من قربه، واقترابه، ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [١٧] ، المتعبد خلقه بالسنة والفرض، فقال جل القائل القديم : (أُشهد وجهي الكريم) [١٨] .

وأعرفني في هذا النور الساطع، والضياء اللامع، المستمد من صفاتي ونور شمس حقيقة ذاتي . إذ تجليت فيه بالرحمة، وبرزت فيه بكل نعمة، وكم فرجت به عن مكروب من غمه، وجعلته محلا للمعاش، وموطنا للانبعاث والانتعاش. رحمته بالإيجاد، ورحمت به البلاد والعباد. فيه تفتح أسواق الأرفاق، وبساحته تُقسَّم بين الأنام والدواب الأرزاق، برياضة تبسط أرواح المحبين بالتلاق، وبحدائقه تبهج الأبصار والأحداق، تتكشف بأكنافه حدائق الذوات برقائق ودقائق الشمائل والصفات، وتسمو[١٩] فيه معالم الأسماء، وتبدو من المكنونات حقيقة ورسماً. فيه تنفذ القضايا والأحكام، وبه يقع النقض والإبرام: (بياضه وضياؤه). حسنه من حسنات سنائي، ولمعةٌ من لمعات نوري وبهائي، به عرف الاظهار كما عرف بالليل حكم الإخفاء، وبه هبت رياح الانس فكشفت من حجال القرب سحفا [٢٠] الأعين إلى نهاية رامقه، ونفوس الخلائق إلى نفسه وبنفسه شائقة، لو أصغيت إلى توحيده لما حدت عنا، ولو سمعت حقائق تفريده، لشربت منا شرابا ينعش الأرواح عطره، ويفوق على شراب الأرواح قدره .

شعر[٢١] :

نهارُ السبط يا لك من نهار شرفت على الزمان فلا ممار
جلوت بوجهك الأحزان طرا وأظهرت المصون بالاستتار

كأنك مظهر الإيجاد حقا ببعــث بعـد موت وانتشار
تفرج كرب مكروب بليل تطاول بالدعاء مع الجوار
فيا لله كم روض سنيّ ؟ جلوت وكم جنينا من ثمارِ
وكم طير يغرد فيك زهوا ؟ وكم نعم ووحش في الصحارِ
بنورك يهتدوا في نيل رزقٍ بذا قد حزت أنواع الفخار
كفاك ثناً من الخلائق ربي بأنك آية من ذي اقتدار

لما أصغى بالسمع إلى حقائق هذا السجع، استطال لسانه وفحواه، وقال مقدسا لمولاه : سبحان من أوجدني وكنت عدما، ونصبني على وحدانيته وفردانيته علما، ورحم بي أمما، وجعلني جاريا في ميادين التنزيه والتسبيح، مجرداً منسلخا من الليل بحبه أهيم وأسيح كاشفا للمعالم . موضحا للمراسم، لو لم يكن من عظيم شأني لكان لي حسبي، وقاهر سلطاني، وباهر برهاني . غيّر أنبائي عن أنباء موجدي وديباني لأحسبني ذلك فخرا وكفاني، أو ما علمت أيها السالك المتنزه في الممالك المستطلع إلى وجه القدر المالك أني نفحة من نفحات، فأحببت بعد التعالي في سماء عن: كنت كنزا لأُعرَفَ[٢٢] . فهو الذي جعلني نهارا مبصرا، آية من آياته، ومترجما أترجم عن معجم أسمائه وصفاته الأطيار، بغرتي على منابر الأشجار، وتترنم الوحوش والدواب، والأنعام تسرح برياض أنس بطلب ما قسم لها من الأرزاق التي تنبسط وتتنعم. القرآن بفجري مشهود، وظهور نور الحق بظهيرة ظهري غير محدود . والعصر لي [وجه] [٢٣] لا منازع فيه لي ولا شريك . وإذا أغيبت شمسي أظلمت الأرجاء والأقطار بإذن المليك . والقمر خليفته في تنوير الغياهب، كذلك من نورها استمدت النجوم الزواهر والشهب الثواقب في الجمع والأعياد والمواسم، والعرفان على جبل عرفاتي سوقه قائم تستبشر بطلوع غرتي، وتنتشر من مواطنها إذا أسفرت بحقيقتي. فلو أخذت أذكر أسراري المصونة وما أودع الله فيَّ من معارف نفيسة عالية غالية ثمينة لطال المقال ووقع بطوله الملال فتبارك من أوجدني بقدرته وهو الكبير المتعال . جعلني محلاً للصلاة والصيام، ومحل بسط للأنام والأنعام، وموطن تعبد بالحج والإحرام . نسخة من مظاهر الصفات، ولمعة من لمعات الأسماء الحسنى الساميات . يكفيني شرفا إنه كان لي مقسِّما ولقدري معظما . فهذه لمعة من نورات أنواري، وكلمة من كتاب أخباري .

فلما أفصح النهار بمقالته، وأعرب بما أغرب من أداء رسالته . التفت إليه الليل بالمرصاد . فقام ممتطيا من الثناء على مآربه جوادا . بعد أن أذن له في الكلام، واستأمر من له الخلق والأمر في البيان والإعلام . وقال : أيها النهار الفاضح الذي هو عن نفسه يخبر وينافح : صهْ ومهْ وأفٌّ ونفٌّ لمن يشهد له في الوجود وجودا مع ذي الوجود الدائم، أو يبصر له بقاءً أو دواما مع من له البقاء والدوام. وهو على كل شيء قيوم وعلى كل نفس قائم، ذاك – لعمري – هو المنازع لربه في أوصافه كماله المخاصم، أو لا يعلم كلٌّ منا إن وجوده له معاور ؟ وإن العارية مؤاذاة، وإن لا وجود ولا شهود ولا قدم ولا دوام ولا قيام ولا قيومية إلا لله . كيف ؟ ! وهو القائل على لسان أخص رسله من ذوي التحقيق والإيقان:(الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان) [٢٤] .

ومن والوقاحة والبذاء منازعة من له الدوام والبقاء، في أوصاف كماله، ونعوت جلاله وجماله، التي من جملتها الوجود الذاتي، والشهود الصفاتي، كما تحديت به في ظهورك، وادعيته في نظمك ونشورك . فلو استحييت لما استحسنت بل تفانيت، وما ادعيت. ولو أبصرت عيوبك الكامنة ونقائصك الظاهرة والباطنة لاستغفرت من ثنائك على نفسك، وتفاخرك على أبناء جنسك، ولو لم يكن من مساوئك المكذبة لدعاويك غير إنك مذيع للأسرار، كاشف للعوار، هاتك للأستار، في مقام أرباب النميمة، ويا لها من جريمة لكان لك ذلك كافيا في العيب، موجبا لفرارك من الشهادة إلى الغيب. كيف ؟! وقد

انضم إلى هذه المثالب، وانخرط في سلك هذه المعايب أنك في أحوالك متلون، ويا لها من مثلبة خادشة وجه كل منقبة، تضحك بإشراقك في ذكر البكاء والأحجاز ؟! وتلبس بوارق ثيابك، وقصاراك عند عدمك مذرعات أكفان ؟! فهلا اقتديت بي، وأنا السابق لك في الوجود المتقدم عليك في مراتب الحكم والشهود القائم على إقدام عبودية الخضوع للملك المعبود، أشير إلى أصلي المعدوم، وفرعي المفقود، أجري ما تحقق به العبد بين يدي سيده ومولاه وجباره، بوصف عدمه وذلك وافتقاره، وأولى ما قام به نعت فاقته واضطراره ليجاب عند دعائه وجواره، أو لم يسمع قوله [من] تعالى عن النظر والأشباه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [٢٥] . نظرتَ إلى الأكوان نظر الجهابذة النقاد، فتحققت فيها بين المقدور والمراد .

فرأيتَ قصاراها [٢٦] إلى الفناء والنفاد، فلبست لها من الثياب السواد، في صورة أهل الأحداد، ذلك خير ملابس الزهاد والعباد . فإن اعترضت بقول خير البرية – صلى الله عليه وسلم – الشافي للعليل والأمراض: (البسوا من ثيابكم البياض) [٢٧] . فالجواب: إن ذلك خطاب في مقام، وله يقال : خوطب به أهل الاقتصاد والابتذال ليخرجهم عن مرادهم إلى مراده، ولينبههم على الباطن من الظاهر بنصحه وإرشاده، ألا ترى كيف افترق الحال في القيمة ؟ وكان خير ملابس أهل الجنة الثياب الخضر في دار الكرامة، والخضرة تؤول إلى السواد كما سمي (سواد العراق) . فافهم الأسرار بإذن الملك القديم الباق. [فلا] تخلقت بأخلاقي، فتكون من رفاقي . جُعِلْتُ سكنا واتصفت بوصف بالسكون بجريان سلطان القدر عليّ، وصرتُ مجمعا لأهل الكتمان لأسرار عشقهم، فكم من حبيب ومحبوب يحنّ إليَّ ! وكيف لا ؟ . وأنا محل الخلوة الكاينة من الأحباب، وموطن الجلوة عند رفع الحجاب، وكشف النقاب . ويظهر سري في قصة الإسراء [٢٨] ؟ ويعرف قدري من تلا : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ ﴾ [٢٩] . ففيَّ كان الدنوُّ والتدلي، وفي مقاصير خبائي تمتع الحبيب المصطفى بشهود كمال جلال بها المحبوب المتجلي. فلا جرم دنى فتدلى، ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [٣٠] .

ليلة قدرٍ فضلها لا ينكر، وكم ينزل ملك فيها في خدمة الروح الأكبر . حتى لاحت غرة صبحك فوقع الافتراق والصعود، فصعدت الأملاك عند طلوع شمسك إلى السماء بإذن الملك المعبود ؟ جُعلتُ محلّا لنجاة الأنبياء ، وسلامة الرسل والأصفياء . هذا (موسى) الكليم – على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء الصلاة والتسليم – أمر أن يرى بقدسه بالأمر القديم في سجف ستري، تعظيما لشأني، وتفخيماً لقدري ، وكذلك أمر النبي لوط – عليه السلام – : ﴿ إِن نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [٣١] . عرف طيب نشر سحري عاطر، وسر نور التجلي من العلي الأعلى لديّ ظاهر. يتنزل في خلواتي العلي المجيد، ويتجلى الملك الحق على جملة العبيد قائلا : (من يدعوني أستجب له) [٣٢] . . من يستغفر لي فأغفر زلله . من يسألني فأعطيه سؤله، وأبلغه أمله، لا يطالع بجهة وجهي إلا الخواص و [يسامرني] إلا اهل الإخلاص، ولا يهجع فيَّ أرباب العيون الهواجع، ولا يعرف فضلي إلا الذين كانوا تتجافى جنوبهم عن المضاجع، ويفتح لهم بحرمي مغلق الأبواب، ويلذُّ لهم بساحتي مع محبوبهم الخطاب، ويطيب لهم بخلوتي المسامرة والعتاب، ويجلسون بميداني على أرائك الوصال، ويرفلون بأوطاني في حلل الكمال، ويرتعون بحاناتي أنوار الجمال، وسواطع لوامع بوارق شوارق الجلال، ويطاف عليهم فيهم بكاسات رائقات، وأقداح بائقات، على أيدي ولدان الكرم الفائقين على اللؤلؤ المكنون [٣٣]، وتعانقهم أبكار أوكار الأسرار ، فهم ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [٣٤]، لا يصدّعون عنها ولا هم ينزفون [٣٥]، بل

يتمتعون بعيش (صان وعطاوان) [٣٦] وحب مصاف يشتكون إليهم ما لقوه في الطريق من القواطع ويبثون إليهم ما لقوه في الطرق من القواطع، ويبثون إليهم ما صادفهم في توجههم إليه من حواسد الموانع . فيقال لهم : لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون [٣٧] . فلكم عندنا فوق ما ترجون وتأملون .

شعر [٣٨] :

هذه خلـــوةُ حقٍّ فاجتلوا فيها الجمال
وتهنـــوا وتملوا قد ظفرتهم بالوصال
فتمنوا وتدلـوا واشهدوا هذا الجمال
فادخلوا حضرة قدسٍ وخذوا كـــل النوال
واجلسوا مقعد صدقٍ فوق بسط باتصال
وتعاطوا شـرب راحٍ سكرهـا حقاً حلال
واستريحو وأريحـوا أنفسا عندي غوال
واشهدوا نور جمالي باقتـــراب ودلال
ما عليكم بعد هذا يا عبادي من وبال
من يرم غير شهودي ضلَّ في أهل الضلال
أو يرد غير رضاي صار في أسوء حال
هل شفيتم إذ لقيتم ؟ ما لقيتم من وصال
هل وري مجد وفي ما عدا وجهي محال
أنا برٌّ ورؤوفٌ وكبير متعال
لي ذات وصفاتٌ لي أسمـــاء الكمال
وسنـــاء وبهـاء منـــه شمس وهلال
خاب من يقصد غيري إذ إلى الحرمـــان آل
كيـف والأكوان طرا فـــي فنـــاءٍ وزوال
فارحلوا عنها تروني حاضرا في كل حال
بيت سري قلب عبدي قدره عنـــدي حال
لم يسعني وسع أرضي لا ولا السبـــع عال
إنما أسكـــن قلبا من جميع الكون خال
يا له بيـــت إله سردي ذي جـــلال
هذه جناتُ عـدنٍ هيئـــت فيها الحجال
فادخلـــوها بسلام ما لكـــم عنها زوال
مرحبا أهلا وسهلا طبتم يا خير آل

فلوا رأيت هيمان المحبين عند سماع مثل هذه الأسمار في خلواتي، لعرفت قدر مقامي بما شاهدت من صفاتي . وأيضا أيها النهار المتمادح بضيائه وإشراقه المتصافح بنعوته وأخلاقه . لو رأيت بعين بصيرتك المبصرة،

وطالعتَ أسفار سيرك التي هي عن الحقائق معبرة مسفرة، لعلمت أنك نفحة من نفحاتي، ولمحة من لمحاتي . وإني أنا السابق كما إنك أنت المسبوق اللاحق . كيف ؟ ! والخبر النبوي يشهد لي بالتقدم، وينوب عني في الخطاب والتكلم، ألم تسمع قوله – صلى الله عليه وسلم – ؟ : (إن الله خلق خلقه في ظلمة ، فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور يومئذ فقد اهتدي ، ومن أخطأه ضل) [٣٩] . رواه أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمر [٤٠] . فهل بعد هذه الشهادة البينة من عدوى وجدال ؟ وكذلك قال الله تعالى في محكم الآيات والزبور : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [٤١] . فقدم على ذكر النور ذكر الظلمات، وجعل الحيرة التي هي نفحة من نفحاتي منتهى أرباب الأحوال والمقامات، فأنت مفصل مجملي، وموضح مشكلي. والإجمال قبل التفصيل، والجل قبل العلم والتحصيل، فلي الفضل عليك في القضية، إذا كنت مظهرا من المظاهر المشيرة إلى الهوية، ففي الهوية عفت الرسوم، واضمحلت العلوم، وسدت السبل على السالكين، وغابت العقول، وذهلت العلماء، فلم تفصح بمعقول ولا منقول .

شعر [٤٢] :

عفت المعالم في شهود الذاتي	فدهشت عن أسماء نعت صفاتي
طويت سماءٌ في قيامة مشهدٍ	أضحت به الأرضون في القبضات
وتساقطت شمس شهب كورتْ	وكذا الشوامخ صـــرن في دكات
لم يبقَ بحـرٌ لا ولا شمس ولا	وحــشٌ ولا شـــــيء من الذرات
فكأنمـــا كان الوجود توهما	كسراب ضمآن لدى القيعـــــات
رجع الوجود لأجله من فضله	سبحان مخرجـــه من الظلمـات
فكأنما لم يكن عين ولا أثرها	بل كان ربي واحـــديّ الذات

فأجاب النهار في مقام الانتصار : ما استندت إليه في الخبر المحمدي شاهد عليك بأن من بقي في حقيقتك وهي الظلمة فهو ضال، ومن أصابه شيء من وصفي فهو مهتد . فقال الليل بلسان فصيح : بخٍ بخٍ، لقد نسبتني بهذا الذم إلى نهاية الثنا والمدح، إذ الضلال قد نُسِب إليه يعقوب النسيب [و] [٤٣] محمد المصطفى الحبيب . فقيل للأول : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ [٤٤] ، وللحبيب : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [٤٥] .

فقال النهار مظهرا للافتخار : مهْ أيها الليل السامي والظلام الداجي، إنما جُعِلت مثلا للكافر والمنافق المداجي، أين مقامك من مقامي وتقطيبك وعبوستك من ضحكي وابتسامي ؟ والذي إليه تصير الأمور يقول في محكم الآيات والزبور: ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ﴾ [٤٦]، جعلتُ مثلا لقلوب العارفين ومهتد للسالكين، والقرآن مشحون بذلك، فأنا مجاور لرضوان في الجنة، وأنت في النار مجاور لمالك، هذا والحق سميع لهذه المحاورة، بصير بما مر من المجادلة والمشاجرة ، فأقبل عليهما مظهراً لعدله ناشرا لفضله كما حكم بين الجنة والنار حين تحاجتا حسبما تضمنه صحيح البخاري [٤٧]، فقال : أيها النهار المبصر دع هذا الجدال وقصر، وفيما خلقت له من إظهار الأسماء والصفات شمر وكذالك أنت أيُّها الليل الأليل، الذي مدّ ذيله في الجدال وطوَّل . دعْ عنك المماراة والجدل واشتغل بما خلقت له من إظهار أسراري في الأبد والأزل ، فأنا الأول والآخر والباطن والظاهر .

فلما سمعا المتحدي بوصف الآنية من الحق المتجلي في كل شيء من المظاهر العلوية والسفلية خشعت له منهما الأصوات، وعنت الوجوه منهما لقيوم الأرض والسموات، فخذ قوتك أيها السالك من هذه الحضرة الفائقة، جعلنا الله وإياك ممن عرف الحق وسلك طرائقه، وشهد حقائقه ..

والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين . وساير عباد الله الصالحين، وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين .

تمت وبالخير عمَّت والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

([١]) تنظر حياته في : شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي ٨ / ٢١٧ – ٢١٩، وهدية العارفين، إسماعيل باشا البغدادي ٥ / ٧٤٢ – ٧٤٣، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة ٧ / ١٥٠ – ١٥١ ، وكشف الظنون ، حاجي خليفة ١ / ٢٦٨ ، والأعلام، الزركلي ٤ / ٣١٢ – ٣١٣ .

([٢]) كذا في الأصل ، والصواب (ذو) .

([٣]) نسبة إلى حماة ، وهي من المدن السورية .

([٤]) الأشعرية : هم أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المنتسب إلى ابي موسى الأشعري . ينظر : الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ١/ ٩٣ .

([٥]) الشَّآبِيبُ مِن المَطر الدُّفعاتُ . ينظر : اللسان، مادة (شأب) .

([٦]) هذا الأسلوب يجنح إليه عادة الصوفيون في كتاباتهم ، وهو ضرب من ضروب التعقيد، وقد أشار إليه النقاد والدارسون، وعده البلاغيون من الامور غير المستحسنة . ينظر : يتيمة الدهر ، الثعالبي ١ / ١٤٥، والنثر الصوفي دراسة فنية تحليلية ، د. فائز طه عمر ٢٩٠- ٢٩١ .

([٧]) سورة النجم ، الآية ١ .

([٨]) الأولى (شارقة من بارقة) حتى تصح المقابلة .

([٩]) البيتان من بحر الطويل، وهما لسالك بن المرحل (ت ٦٩٩ هـ) ، ديوانه ٣٧ .

([١٠]) كذا في الأصل والصواب (أبياتا)

([١١]) الصواب (بيتاً) لأنها بدل من أبيات .

([١٢]) أحسبها زيادة، فهي مقحمة هنا بلا مناسبة .

([١٣]) جان بردى الغزالي : هو قائد مملوكي تعاون مع سليم الأول في حربه ضد المماليك، كان طموحا، وأدى طموحه أن يتغلب على المماليك، ويتعاون مع سليم الأول .

(١٤) هو السلطان سليم الأول، وهو تاسع سلاطين الدولة العثمانية، وأول من حمل لقب أمير المؤمنين من آل عثمان .

(١٥) الأبيات على الرمل .

(١٦) سورة الأنعام / من الآية ٧٦ .

(١٧) سورة فاطر/ من الآية ١ .

(١٨) ليس نصا قرآنيا .

(١٩) زيادة .

(٢٠) زيادة .

(٢١) الأبيات من الوافر .

(٢٢) إشارة إلى الحديث القدسي : (كنت كنزا مخفياً فأحببت أن أُعرف وخلقت الخلق لكي أُعرف) . ينظر : بحار الأنوار ٨٤ / ١٩٩ ، وشرح أصول الكافي ١ / ٣٨ .

(٢٣) ساقطة مكتوبة على الحاشية اليمنى للمخطوطة .

(٢٤) صحيح البخاري : ١ / ١٢ ، حديث ٩ . وصحيح مسلم : ١ / ٦٣ ، حديث ٣٥ .

(٢٥) سورة النمل / من الآية ٦٢ .

(٢٦) الصواب : قصاريها .

(٢٧) سنن الترمذي ٣ / ٣١٩ ، الحديث ٩٩٤ ، وينظر : سنن النسائي ٨ / ٢٠٥، الحديث ٥٣٢٢ .

(٢٨) يعني قصة الإسراء والمعراج .

(٢٩) سورة الإسراء / من الآية ١ .

(٣٠) سورة النجم / من الآية ٩ .

(٣١) سورة المزمل / الآية ٦ .

.(٣٢) تضمين من قوله تعالى : ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ . سورة غافر / من الآية ٦٠ .

(٣٣) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ويطاف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا . سورة الإنسان / الآية ١٩

(٣٤) سورة الروم / من الآية ١٥ .

(٣٥) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ . سورة الواقعة / الآية ١٩ .

(٣٦) تعبير لم اهتد إلى معناه في ما عدت إليه من المعاجم العربية .

(٣٧) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . سورة البقرة/ من الآية ٣٨ .

(٣٨) الأبيات من بحر الرمل .

(٣٩) سنن الترمذي ٥ / ٢٦ ، رقم الحديث ٢٦٤٢، وينظر : مسند احمد ٢ / ١٧٦ ، رقم الحديث ٦٦٤٤ .

(٤٠) وجدته في الترمذي مرويا عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، وليس عبد الله بن عمر، وكذلك في مسند أحمد وسنن البيهقي .

(٤١) سورة الأنعام / من الآية ١ .

(٤٢) الأبيات على البحر الكامل .

(٤٣) ساقطة .

(٤٤) سورة يوسف / من الآية ٩٥ .

(٤٥) سورة الضحى / الآية ٧ .

(٤٦) سورة الرعد / من الآية ١٦ .

(٤٧) نص الحديث في البخاري : قَالَ النَّبِىُّ - صلى الله عليه وسلم - « تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ فَقَالَتِ النَّارُ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ . وَقَالَتِ الْجَنَّةُ مَا لِى لاَ يَدْخُلُنِى إِلاَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ . قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ أَنْتِ رَحْمَتِى أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِى . وَقَالَ لِلنَّارِ إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابٌ أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِى . وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا ، فَأَمَّا

النَّارُ فَلاَ تَمْتَلِئُ حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ قَطِ قَطِ قَطِ . فَهُنَالِكَ تَمْتَلِئُ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَلاَ يَظْلِمُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا ، وَأَمَّا الْجَنَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا » رقم الحديث ٤٨٥٠ .

المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

١- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان .

٢- بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت ، لبنان .

٣- تاج العروس في جواهر القاموس، السيد مرتضى الزبيدي (١٢٠٢هـ)، ط١، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣١٦ هـ .

٤- الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، علي محمد محمد صلابي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٨م .

٥- سنن الترمذي : الترمذي أبو عيسى محمد بن عيسى ت ٢٧٩هـ، تح . د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلام، ط١ ، ١٩٩٦م .

٦- السنن الكبرى : البيهقي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي ت ٤٥٨هـ، مجلس دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند، ط١، ١٣٤٤هـ .

٧- سنن النسائي : النسائي (احمد بن شعيب ٣٠٣هـ، تح. عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية ، حلب، ط٢، ١٩٨٦م .

٨- شذرات الذهب، ابن عماد الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٩- شرح أصول الكافي، مولي محمد صالح المازندراني، قم ، إيران .

١٠- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦هـ ، تح. د. مصطفى أديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط١ ، ١٩٨٧م .

١١- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري ٢٦١هـ ، تح. محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، (د. ت) .

١٢- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .

١٣- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، مراجعة وتدقيق د. يوسف البقاعي وإبراهيم شمس الدين ونضال علي، مؤسسة الأعلمي ، ٢٠٠٥ م.

١٤- مالك بن المرحل أديب العدوتين، دراسة وتحقيق أ.د محمد مسعود جبران، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات، ٢٠٠٥م .

١٥- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان .

١٦- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٤٠٥هـ، دار الفكر، بيروت ، (د. ت) .

١٧- مسند الإمام أحمد، احمد بن محمد بن حنبل ت ٢٤١هـ، شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاك، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م .

١٨- الملل والنحل، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد الشهرستاني، تح . محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ .
١٩- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .
٢٠- الموقع الالكتروني: htt / parum . kooora. com